تحقيق

بين طموحات النص وتحولات الواقع

بنت مشروعها على قراءة ديناميّة للوعي الاجتماعي، في التاريخ والأدب، جامعةً بين الخلفيّة الأكاديميّة ومنطق التواصل الحديث. في «الرواية العربية ـ المتخيَّل وبنيته الفنية» (الفارابي)، تواصل البحث عن العلاقة بـ «المرجع الحي» في تجارب أدبيّة راهنة، لبنانية وعربية

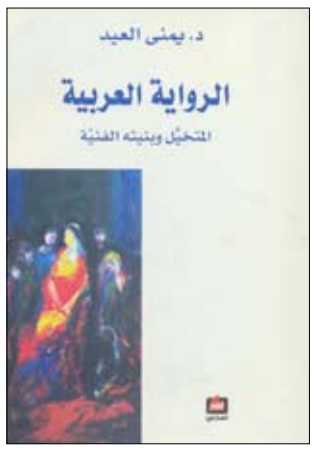

يمنى العيد النقد من خارج السلطة

حسين بن حمزة

تذكّرنا يمنى العيد بذلك النوع النادر من النقاد الذين مزجوا بين الطابع الأكاديمي لمنهجياتهم النظرية، والروح النقدية الحديثة المرافقة لحركة الأدب وتغيراته المستمرة. الصرامة الأكاديمية التي غالباً ما تبقى حبيسة جدران الجامعات، وتتبدى على شكل منهجيات تشريحية باردة، تتخفف في ممارسة يمنى العيد عبر احتكاكها بالحيوية الناشئة من متابعة ما يجري في النصوص.

بدأت الناقدة اللبنانية مسيرتها بأبحاث لافتة تنقّب عن الوعي الاجتماعي داخل التاريخ والأدب، وخصوصاً، في كتابها «الدلالات الاجتماعية لحركة الأدب الرومنطيقي في لبنان» (1979). ثم جاء كتابها الانعطافي «في معرفة النص» (1983) ليفتح نبرتها النقدية على مقاربات متعددة للنص الأدبي. مارست العيد النقد بوصفه قراءة مفتوحة، وغير مقيدة بمنهجية وحيدة. قراءةً رفدت ممارستها النقدية بنضارة قادرة على مواكبة المستجدات التخييلية والأسلوبية في أيّ نص أدبي تتناوله. هكذا، درست في مؤلفاتها أعمالاً شعرية وروائية مختلفة، غير مكترثة إن كان أصحابها مكرّسين أو شباناً. بالنسبة إليها، كانت قراءة الدلالات والإحالات التي تقدمها النصوص هي الأهم.

في الأثناء، رسمت صاحبة «الكتابة: تحوّل في التحول»، ما يمكن أن نسميه مساراً نقدياً خُصِّصت معظم محطاته للرواية والسرد، وأقلها للشعر. لكنها برعت في إضاءة علاقات جديدة بين طموحات النص وتغيرات الواقع، واشتقّت مصطلحات ومفاهيم لائقة نظرياً وتطبيقياً بنبرتها المنحازة إلى النص. هكذا، اهتدت إلى مصطلح «المرجع الحي»، الأكثر تعقيداً وتشعباً من مصطلح «الواقع» العائم على تاريخ طويل من سوء الفهم مع النص. «المرجع الحي» حرَّرها من فكرة أن الأدب انعكاس مباشر للواقع. لم تُدِر الناقدة ظهرها كلياً للواقع، لكنها انتقلت «من سؤال: ماذا أقول؟ إلى سؤال: كيف أقول»، بحسب تعبيرها. لم تعد الأولوية النقدية للعلاقة البسيطة بين الشكل والمضمون. صار النص مفتوحاً على تأويلات بعدد قراءاته المختلفة.

في كتابها الجديد «الرواية العربية ـ المتخيَّل وبنيته الفنية» (دار الفارابي) تعرِّض الناقدة اللبنانيّة فكرة المرجع الحي لمساءلات إضافية، عبر تناولها عدداً من الروايات اللبنانية والعربية منظوراً إليها منفردةً أو داخل سياقات معينة. يضم الكتاب أبحاثاً وعناوين متنوعة، تشترك في هاجس البحث عن أثر الواقع المعيش، أو المرجعية الحية في البنية الدلالية والفنية للأعمال المدروسة. قد يكون المرجع الحي «مهمّشاً» في دراستها لرواية «وردية ليل» لإبراهيم أصلان، أو «مدمراً» في روايات الحرب اللبنانية. هو المجتمع المصري قبيل هزيمة يونيو في «ميرامار» لنجيب محفوظ، وهو المسألة الطائفية والعنف كما ظهرا في الرواية اللبنانية، وهو القضية الفلسطينية في المتخيّل السردي العربي...

العناوين العامة في الأبحاث السابقة تصبح أكثر كثافة وخصوصية في إضاءة عناصر محددة في بعض التجارب الروائية. نقرأ مثلاً عن «مفهوم الجسد في أعمال غالب هلسا»، وإشكالية «الأدب النسائي» في تجارب عدة مثل: سحر خليفة، ورضوى عاشور، وأحلام مستغانمي، وعلوية صبح، وعالية ممدوح، واستثمارات «السيرة الذاتية» في المتخيل الروائي، وعلاقة الأنا بذاته وبالآخر، وعلاقة «الرواية بالتاريخ»، قبل أن يُختتم الكتاب بـ «سؤال المستقبل» المطروح على الرواية الراهنة. وهو السؤال الذي لم تكف الرواية العربية عن طرحه، بحسب المؤلفة، من خلال التجريب المستمر والبحث عن ممكنات سردية وتقنية مختلفة للمرجعيات الحية التي تعوم فوق طبقاتها. ولعل تناولها لـ «المشروع الروائي لربيع جابر» هو خير تجسيد لهاجسها في مواكبة التجارب الروائية العربية الجديدة، من خلال قراءة نقدية حيوية لواحدة من أغزرها. لا يمكن تلخيص الممارسات الذكية والمرنة التي تخضع لها الأعمال المدروسة في الكتاب. تشتغل يمنى العيد ضد القناعة البديهيّة السائدة بأن الناقد هو سلطة عليا، فتمنح النص استقلالية كاملة في قول حكايته اللصيقة بمرجعيات واقعية، لكنها لا تختزل الواقع في مرآة صافية وثابتة.

تتجول يمنى العيد بين روايات كثيرة، لكن ذلك لا يُخفي الخيط النقدي الذي يجمع هذه القراءات، والمتمثل في تعزيز المذاق الطليعي لمصطلح «المرجع الحي» وخلق

> **تدرس إشكالية «الأدب النسائي» من خلال تجارب رضوى عاشور وعلوية صبح وعالية ممدوح...**

قراءة

جودت فخر الدين راوياً «سيرته مع الغيم»

في مجموعته التاسعة، لا يكتب جودت فخر الدين سيرته مع الغيم فقط، بل مع عناصر أخرى تنتمي إلى الطبيعة التي حضرت بطرق وممارسات شعرية مختلفة في تجربته. الشاعر اللبناني اهتدى منذ بداياته إلى نبرة تجمع بين تأنّي العبارة وتأمل الطبيعة وإيقاع التفعيلة. والطبيعة حاضرة أيضاً في عمله الجديد «فصول من سيرتي مع الغيم» (الريس)، حيث تتحول كالعادة إلى مادة للتأمل الشعري، أو مناسبة مواربة لاستعادة فردوس طفولي مفقود.

> **التأمل يقلل استدراج اللغة إلى صور مباغتة**

صاحب «أوهام ريفية» لا يراقب الحياة من الخارج، بل يدسّ نفسه بين مفرداتها. في قصيدة «لم أجد غير نفسي»، يبتكر مفارقة شكلية بين قامته المديدة وشجر الحور: «وكنتُ أرى كل شيء قصيراً/ فرافقني الحورُ/ رافقني كأخ لي طويل/ .../ كان أطول مني إذا ما كبوتُ/ وأقصر مني إذا ما زهوتُ/ ولكنه كان مثلي نحيلاً وهشاً/ ويحفر فيه الأذى».

وفي القصيدة التي حملت عنوان المجموعة، يعقد صلات استعارية بين عبور الغيوم وعبور الكائن في أعماره المختلفة. يمتدح طفولته: «غيوم البدايات أجمل/ لي بعد ذلك أن أستخف بكل مصير». ويأسى لفعل الزمن: «ذكرياتٌ غيومٌ/ وليت الزمان له خفة الأمس/ ليت الزمان برمّته/ مثل أمس تحرّكه الريح في وهن/ فيطير كما ورقٌ في الخريف/ هنا، وأنا أراقب الآن شمل الغيوم الذي يتجمع فوق التلال/ تروح بي الذكريات إلى زمنٍ كالأثير/ إلى زمنٍ لم يكن/ زمنٍ لم يعُد/ زمنٍ لم يزل».

في قصيدة «يوميات بيضاء»، يرى بياض الثلج كبياض الورقة التي سيكتب عليها: «يقول لي الثلج في أول العام:/ قفْ، وابتدئْ/ ها أنا الآن صفحتكَ الخالية/.../ وأبقى هنالك مبتدئاً بين هذا وذاك/ أحاول في كل يوم صناعة معجزةٍ للبياض/ أحاول كل يوم/ ولستُ لأنتظر الثلج».

هكذا، يمتزج الحوار مع الطبيعة بالحوار مع النفس. بينما يعمل الشاعر على خلط الحوارين مع الحوار الداخلي للتجربة الشعرية التي تتراكم من ديوان إلى آخر، وتستثمر مناخات النثر ومعجمه اليومي. بهذه الممارسة، ينظف الشاعر قصيدته من صخب الإيقاع، ويقرّبها من كتابة شعرية أكثر حداثة، لكنها تتأخر تجريبياً عن قصيدة النثر التي تكتبها الأجيال الجديدة. كما أن اكتفاء الشاعر بالخفوت والتأمل يقلّل من حرصه على استدراج اللغة إلى صور مباغتة للقارئ. قد نلتقط صورة مثل: «وغافلنا الغيمُ/ إذْ نتفٌ منه راحت تحلق أبعد مما نظن/ وأخرى أتت تستحمّ هنا/ في مياه البحيرة»، أو قول الشاعر لأبيه الراحل: «لقد هدّك الداء/ لكنك الآن أفلتَّ منه/ شفيتَ، وألامك انطفأت»، ولكنها لا تشبه تلك الصور المتفردة التي تفاجئ ذائقتنا.

ندرة الصور توحي بأن ما يهم الشاعر هو بناء القصيدة. كأن المطلوب هو خلق تأثير شامل لدى قارئ لا يجد غضاضة في الاستسلام للغة خافتة، تصيبه بحنين وأسى يتنزهان في المجموعة كلها.

حسين...